الفصل الثاني

مصطلح الأدب الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

١ - تعريف الأدب الإسلامي:

هناك صيغ متعددة لتعريف الأدب الإسلامي كلُّها تحاول أن تحصر مفهوم هذا المصطلح حصرًا جامعاً، ولعل من أقرب تلك التعريفات إلى الهدف المنشود ما ذكره د/ عبد الرحمن رأفت الباشا ـ يرحمه الله ـ بأنه «التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيرًا ينبع من التصور الإسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته»[١].

إن هذه القاعدة تقرِّب معنى الأدب الإسلامي المراد، وتعرِّف المتلقي بأطره العامة التي يتحرك داخلها، وذلك شأن التعريف الأدبي، فالمهم فيه أن يقرب المعنى وليس شرطاً أن يكون جامعاً مانعاً كالتعريفات العلمية، ومن معاني (عرَّف بكذا) في اللغة العربية: «جعله يُعرف به»[٢]. وهذا التعريف يحقق هذا المعنى، ويمكن أن نستخلص منه خصائص الأدب الإسلامي التي تميّزه عن غيره من الآداب الأخرى[٣]، وهي خصائص توضح للمتلقي حقيقة مصطلح الأدب

(١) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص ٩٢، طبعة ١٤٠٥ هـ، وقد شرح الدكتور الباشا هذا التعريف شرحاً وافياً في كتابه فليرجع إليه.

(٢) جبران مسعود، الرائد، معجم لغوي عصري (٢٠١٧/٢)، مادة عرّف، دار العلم للملايين.

(٣) نحو مذهب إسلامي، ص ١١٦.

obeikandl.com

الإسلامي، الذي يثير بعض التساؤلات عند بعض المهتمين بالأدب.

وإذا كان معنى الاصطلاح هو «اتفاق جماعة من الناس ذات اختصاص واحد على مدلول كلمة أو رقم أو إشارة أو نحوها»[1]، فإن ذلك يعطي هذا المصطلح «الأدب الإسلامي» مشروعية دلاليّةً لا ينفيها وجود من يعارضه؛ لأن وجود جماعة ذات اختصاص اتفقت على هذا المصطلح قد تحقَّق، وهذا يعفينا من الاسترسال في مناقشة قضية «المصطلح» وما يدور حوله من تساؤلات قائمة على التحفُّظ عليه أو رفضه؛ ذلك لأنَّ الإبداع الأدبي الإسلامي الذي أصبح يسجل وجودًا مؤثرًا في الساحة الأدبية، وما يصاحبه ويتبعه من دراسات نقدية ناضجة تبرز ما فيه من جوانب الإبداع والقوة والضعف، وما فيه من صور حيَّة للتصور الإسلامي الذي يعدُّ نواةً لهذا المصطلح، أقول: إن ذلك كله كفيل بأن يقرب المسافة بين حقيقة هذا المصطلح والمترددين أمام مشروعيته[2].

(١) الرائد، (١٥٢/١).

(٢) د/ نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص ٣٩، سلسلة كتاب الأمة ١٤٠٧هـ، وانظر في النقد الإسلامي المعاصر د/ عماد الدين خليل،ص ٦ وما بعدها، ط ١، مؤسسة الرسالة ١٣٩٢هـ.

obeikandl.com

ومع ذلك فإنني أقول: من المؤكد أنه ما من فكرة تطرح، أو مصطلح علمي أو أدبي يوضع إلا وتكون في جداره ثغرات، وتحدث أمامه وقفات نقدية، وتثار حوله شبهاتٌ، بل لعل تلك النقدات الموجهة، وهذه الشُّبهات المثارة هي التي تتكفل بسدِّ ثغرات المصطلح وتصحيح ما قد يحدث في دلالاته من أخطاء.

ولابد من اتساع صدور أصحاب المصطلح لما يُوجَّه إلى مصطلحهم من نقد مهما كانت الدوافع وراء ذلك النقد.

ولعلَّ من المفيد هنا أن أذكِّر الإخوة القراء بأهمية الفهم للمصطلح فهماً واعياً من قبل الناقد له حتى يبني أحكامه على قاعدة صحيحة، ولو راعى كلُّ ناقد هذا الجانب لسلم الأدب من شرٍّ كثيرٍ من «المناقشات الجدلية» التي لا فائدة منها.

إنّ مصطلح (أدب إسلامي) يقوم على قاعدة راسخة من التصوّر الإسلامي الصافي للكون والحياة والإنسان، وهو كما نعلم تصوُّر شامل فسيح، لا يترك جانباً من جوانب الحياة دون تأمل وتفكر، كما أنَّه تصوّر سليم من آفات الأفكار والمذاهب والمعتقدات البشرية المحرَّفة القائمة على «قرارات» يصدرها العقل البشري العاجز عجزًا ظاهرًا أمام كثير من جوانب الكون الخفيّة ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾.

ونعني بالتصور الإسلامي، تلك الرؤية الشاملة التي تمكن الأديب المسلم من تأمُّل ما يجري في هذا الوجود بصفاء، بل هي ـ الرؤية ـ التي تفتح أمام الأديب نوافذ الحياة الدنيا، والآخرة، من خلال تلك الروح المسلمة التي تتميز «بشفافية» لا نظير لها.

وهذا التصور الإسلامي لا يتأتى للنفوس والعقول المريضة التي فتحت أبوابها لجراثيم الأفكار والتصورات المنحرفة عن منهج الإسلام، كما أنه لا يحول دون التأمل الشامل لكل ما يدور في هذا الوجود، بل إنه يحقق هذا التأمل، وما هو أبعد منه مما ينتظر الإنسان في الآخرة؛ ولهذا كان الأديب الإسلامي متميزًا عن غيره من أصحاب الاتجاهات الأخرى بإمكانية التصوير الأدبي لما يختلج في نفسه من شوق إلى الآخرة بما فيها من نعيم مقيم. وبما فيها من عذاب أليم ـ وفق تصوُّر سليم من لوثة الأساطير والخرافات.

بل إن ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام من أنَّ في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ليعطي الأديب الإسلامي مساحات شاسعة رائعة من الخيال الواعي لتصوير خلجات قلبه نحو ذلك النعيم العظيم.

ما كنت أظن مسلماً سيقف متردداً أمام هذا المصطلح من حيث صلاحيته للوجود والبقاء، وقد عجبت كلَّ العجب لأحدهم عندما قال: إذا قلنا الأدب الإسلامي فكيف نعبِّر عن الوردة الجميلة والمنظر الطبيعي الخلاّب؟. عجبت له وأشفقت عليه من هذا التصوُّر الناقص والفهم الكسيح لمعنى مصطلح الأدب الإسلامي. ولاشك أن هذا القائل وأمثاله يبنون على هذا الفهم القاصر مواقفهم الرافضة لهذا المصطلح، ولو أعطى هذا القائل لنفسه فرصة التأمل والتفكير لعرف مدى النقص الكبير لديه في الاستيعاب، وإلا فإنَّ نظرة عاجلة إلى كتاب الله الكريم وسنَّة الرسول عليه الصلاة والسلام لتؤكد أن التأمُّل الواعي، والشمولية في النظرة من أهم سمات المنهج الإسلامي.

يقول د/ محمد صالح الشنطي، بعد حديثٍ جيد عن مصطلح الأدب الإسلامي: «نخلص من ذلك كلِّه أن لا مشاحّةَ في المصطلح وأن الأدب الإسلامي تسمية مشروعة، وأن الدَّعوة إلى الله من خلال الأدب وعبر الكلمة لا يمكن أن يعترض عليها أحد... والربط بين الأدب والدين ليس جديداً»[1].

(١) في الأدب الإسلامي قضاياه وفنونه ونماذج منه:٢١، دار الأندلس، حائل الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

obeikandl.com

٢ ـ شبهات وردود:

(أ) الأدب الإسلامي والأدب العربي:

يعترض بعضهم على مصطلح الأدب الإسلامي بقوله: إننا بهذه التسمية نلغي الأدب العربي، ويرى أنّ هذا جناية على الأدب العربي الذي أعطى على مدى قرون طويلة وما يزال، ونجيب عن هذا بما يلي:

أولاً: لا يعني مصطلح الأدب الإسلامي إلغاء الأدب العربي، وهذا الربط بين الأمرين ناتج ـ في نظري ـ عن تلك الرؤية الناقصة والفهم الكسيح لهذا المصطلح، وإن المراجعة السريعة لما كتبه نقاد الأدب الإسلامي تثبت خطأ هذا الزعم فما من واحد من النقاد الإسلاميين قال بإلغاء الأدب العربي على الإطلاق، ويمكن أن تراجع الكتب التي نشرت في هذا المجال لكتّاب مقتدرين أمثال د/عبد الرحمن رأفت الباشا في كتابه «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد»، و د/عبدالباسط بدر في كتابيه «مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي و« مذاهب الأدب الغربي ـ رؤية إسلامية»، و د/ عماد الدين خليل في كتابه «في النقد الإسلامي المعاصر»، وغيرها من الكتب التي نشرتها رابطة الأدب الإسلامي.

obeikandl.com

ثانياً: قلنا: إن الأدب الإسلامي هو «التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب من خلال التصوُّر الإسلامي»[1]. فالتصور الإسلامي هو القاعدة التي يقوم عليها هذا الأدب، ولهذا فإن بين الأدب الإسلامي والأدب العربي عموماً وخصوصاً .

فالأدب الأسلامي أعم من حيث شموليته لكل أدب انبثق من التصوُّر الإسلامي سواء أكان أدباً مكتوباً بالعربية أم بغيرها من اللغات الأخرى التي يتكلم بها المسلمون في العالم،وهو أخصُّ؛ لأنه لا يطلق إلا على الأدب المنبثق من التصور الإسلامي، والأدب العربي أعم من حيث إنه يشمل كلَّ ما كتب باللغة العربية على اختلاف المناهج والأفكار فهو يطلق على الأدب الاشتراكي والوجودي، واليساري، والقومي، والإسلامي، ما دام مكتوباً بالعربية، كما أنه أخصُّ؛ لأنه لا يشمل الأدب المكتوب باللغات الأخرى، فإذا كتبت قصيدة بالأوردية مثلاً وكانت من خلال تصوُّر إسلامي كقصائد محمد إقبال، فإني أسميها أدباً إسلامياً، ولا يصح أن أسمّيها أدباً عربياً، وهكذا.

(١) صالح آدم بيلو، من قضايا الأدب الإسلامي، ص ٥١ وما بعدها، دار المنارة جدة، ط ١، ١٤٠٥هـ.

obeikandi.com

فما كان من الأدب العربي منبثقاً من الرؤية الإسلامية أو متفقاً معها فهو أدب إسلامي، وما كان خارجاً عنها فهو أدب غير إسلامي، بل إن النصوص الأدبية التي لا تنبثق من التصور الإسلامي أساساً، ولكنها لا تتعارض معه تكون مقبولة في الأدب الإسلامي.

إن محمد إقبال شاعر إسلامي وهو باكستاني، وإن محمد محمود الزبيري شاعر إسلامي وهو عربي يمني، ولكن صلاح عبد الصبور ليس شاعرًا إسلامياً وهو عربي مصري وهكذا.. ولا يستطيع عاقل منصف أن يقول: إن أدب اليسار العربي أدب إسلامي، أو يقول إن أدب القومية العربية الذي يروِّج لمفهومها الضيق أدب إسلامي، بحجة أنه كتب بالعربية.

ومن هنا كانت شبهة «إلغاء الأدب العربي» باطلة من أساسها، بل إن صدور كلمة إلغاء في مقام الأدب دليل على عدم الوعي، فإنه لا يمكن لأحد أن يلغي اتجاهاً أدبياً مهما كان انحرافه، والأدب الإسلامي لا يملك قرار مصادرة الآداب الأخرى، وليس هنالك من يملك هذا الأمر من البشر، وإنما هو منهج واضح، يرسم أمام الأجيال المسلمة طريقاً أدبياً سليماً حتى لا يتخبطوا في طرق الآداب المنحرفة عن منهج

obeikandl.com

الإسلام، وشتان بين هذا وبين دعوى «الإلغاء»، وهنالك فرق كبير بين من يرفض أمرًا؛ لأنه يتعارض مع ما يؤمن به، وبين مَنْ يُلغي ذلك الأمر، إن الأدب الإسلامي يرفض الآداب التي تخالف تصوُّره الشامل، ولكنه لا يلغيها.

إنه يرفض أدب محمود درويش مثلاً؛ لأنه لا ينبثق من التصور الإسلامي، وإنما ينبثق من التصور اليساري، ولكن الأدب الإسلامي لا يلغي شعر محمود درويش، إن مدلول كلمة الإلغاء هو «الشطب الكامل والمصادرة» وهذا لا يتأتى لبشر، وأكبر دليل على ذلك ما بذله أصحاب الاتجاه اليساري «التقدمي» في عالمنا العربي من جهود كبيرة لمصادرة الأدب الإسلامي وإلغائه بحجبه عن الناس وممارسة الإرهاب الثقافي ضده في الملاحق والصحف الأدبية، ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا ـ بإذن الله ـ.

وأضرب مثلاً بالكاتب الروائي والمسرحي الإسلامي علي أحمد باكثير ـ رحمه الله ـ فقد حورب من قبل اليساريين وحالوا دون أعماله ودون النشر إلا في نطاق ضيِّق يكون

(١) قراءة في أدب اليمن المعاصر للدكتور عبد العزيز المقالح، ص ٢٦، دار العودة بيروت.

obeikandl.com

خارجاً عن إرادتهم[1]، ومع ذلك فهذا (باكثير) حيٌّ في عالمنا الإسلامي بأدبه، وهذه أعماله تطبع من جديد ويتلقفها القارئ بلهفة وشوق، ومثل هذا يقال عن محاولات أصحاب «الاتجاه العلماني» في الأدب الرامية إلى إلغاء الأصوات الإسلامية ومع ذلك فإنهم عاجزون؛ لأن فكرة الإلغاء غير واردة أصلاً في مجال الأدب والثقافة.

إذن فالأدب الإسلامي مظلّة كبيرة يستظل بها أصحاب التصور الإسلامي، وهي قادرة على إيواء كل أدب يتفق مع هذا التصوّر، ولكنها ترفض ما يصادم تصوُّرَها، وفرق كبير بين الرفض و«الإلغاء».

(ب) الأدب الإسلامي والإبداع الفني:

يدعي بعضهم أن الأدب الإسلامي يحول بين الأدب والإبداع الفني الذي يحقق المتعة للقارئ، فهو أدب وَعْظ وإرشاد فقط، وأقول: إن الذين يطلقون هذه المقولة لا يبحثون عن الحقيقة بحثاً علمياً جادًا وإنما يتأثرون ـ غالباً ـ بما يُشاع ويقال، وأذكر أن دكتورًا أديباً وشاعراً من بلد عربي قال لي ذات يوم: إنّ «نجيب الكيلاني» يفتقر في قصصه ورواياته إلى الإبداع الفني، وإنه كاتب سردي فقط، وبعد نقاش بيني وبينه

تبين لي أنه لم يقرأ لنجيب الكيلاني شيئاً، وإنما قرأ عنه بعض ما كتب نقَّاد غير منصفين ممن يختلفون مع الكيلاني في المنهج، واتفقنا أن يقرأ ذلك الدكتور رواية «عمالقة الشمال» للكيلاني، وقرأها، ثم قرأ رواية «عذراء جاكرتا» للكاتب نفسه فتغيّر حكمه على نجيب الكيلاني من النقيض إلى النقيض.. لأنه اطّلع بنفسه ورأى بعينه، بعد أن كان يرى بأعين الآخرين.

وأعود إلى صلب الموضوع فأقول: الأدب الإسلامي راعى جانب الإبداع الفني، فقد مرَّ معنا في تعريفه أنه «التعبير الفني»، فكلمة «الفني» شرط في الأدب إذ إنَّ من أهم الفوارق بين النص الأدبي وغيره «الإبداع الفني الذي يحقق المتعة» هذا الإبداع لا يخضع لشروط مقنَّنة محدَّدة، وإنما هنالك إطار عام متعارف عليه في مجال الأدب يتكون من سلامة اللغة، وحسن الأسلوب، وصدق التجربة الشعورية، وجمال التصوير، ثم إن للكاتب أو الشاعر بعد ذلك أن يتفنَّن في أدبه بما يحقق المتعة الفنية، طولاً وقصرًا، رمزاً وإيحاءً أو وضوحاً ومباشرة.

وهذا الجانب الفني ليس وقفاً على أحد، بل هو مشاع بين الأدباء على اختلاف مشاربهم ولغاتهم، يبدع فيه من يبدع

obeikandl.com

ويخفق فيه من يخفق، وإذا تحقق في النص الأدبي ذلك الإطار العام للإبداع الفني فليس من حق أحد من النقاد أن يلغي هذا الجانب في نص ما بسبب اختلاف في المنهج والفكر.

وعندما يُعنى الأدب الإسلامي بجانب الإبداع الفني فإنه لا ينطلق في ذلك من التقليد للآخرين، وإنما يعتمد فيه على رؤية إسلامية أصيلة، عُني بها القرآن الكريم في أسلوبه المعجز، كما عُني بها أشدّ العناية الرسول عليه الصلاة والسلام، أما القرآن الكريم فهو واضح لكل مسلم يقرأ آياته بتدبُّر يقف من خلاله على إعجازه البياني المتفرِّد.

أما عناية الرسول عليه الصلاة والسلام بالجانب الفني فتؤكدها الروايات الصحيحة في هذا المجال. ومن ذلك ما ورد في صحيح مسلم من أن الرسول ﷺ دعا الشعراء إلى المنافحة عن الإسلام، فأنشده عبد الله بن رواحة فلم يُرْضِ، وأنشده كعب بن مالك فلم يُرْضِ، ثم بعث إلى حسان ودعا له وقال: «إن روح القدس ـ يعني جبريل عليه السلام ـ لا يزال يؤيدك»[1].

ونتساءل هنا، ما الذي جعل الرسول عليه الصلاة والسلام يختار حسان ويفضله على صاحبيه، مع ما نعلم من حبه ﷺ لعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك؟

(١) صحيح مسلم، باب فضائل حسان بن ثابت (٢٤٨٧).

obeikandi.com

إن الإجابة الشافية عن هذا السؤال موجودة في كتب الأدب التي جعلت حسان بن ثابت فحلاً من فحول الشعراء، فهو من الشعراء البارزين في سوق عكاظ، وقصصه في التنافس مع فحول الشعراء معروفة، وقد ذكر ابن سلاَّم الجمحي في (طبقات فحول الشعراء) أن حسان يعد أشعر أهل القرى يعني بذلك مكة والمدينة والطائف، وشعر حسان دليل على قدرته الفنية[1].

إذن فإن اختيار الرسول عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت لم يكن اختيارًا عشوائياً وإنما كان مبنياً على رؤية نقدية واضحة، كيف لا ورسول الله ﷺ هو الخبير بمواطن القوة والضعف في اللغة العربية أليس هو الذي قدَّم حسان عندما جاء إليه وفد تميم، وكان حسان حينها غائباً فانتظره حتى جاء فألقى قصيدته المعروفة:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بيَّنوا سنةً للناس تُتبَّعُ

حتى قال أقرع بن حابس: «إن هذا الرجل لمؤتى له،

(١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢١٥، تحقيق محمود شاكر.

obeikandi.com

لخطيبه أبلغ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا» وأسلم هو وقومه[1].

ومما يؤكد عناية الإسلام بالجانب الفني في الأدب ما رواه جلال الدين السيوطي في كتابه «الدرُّ المنثور» حيث ذكر أن الصحابة قالوا لعلي ـ رضي الله عنه ـ: أهج شعراء المشركين، فقال لهم: استأذنوا رسول الله ﷺ، فاستأذنوه فقال لهم عليه الصلاة والسلام: ليس بذاك، ابعثوا إلى حسان[2].

لماذا حسان؟

لأنه شاعر فحلٌ قادر على تصريف الكلام وصياغته بأسلوب فني رفيع، ليس هناك تفسير غير هذا، ولو لم يكن مقياس الاختيار فنيّاً، لما اختار الرسول عليه الصلاة والسلام حسَّان وفضَّله هنا على عليٍّ، فإن ابن عمه أحب إليه وأقرب من حسان، ولكنها الإجادة في الشعر قدمت حسان بن ثابتٍ هنا.

إذن فالإبداع الفني شرط رئيسٌ لا يمكن التنازل عنه من

(١) ديوان حسان بن ثابت، ص ١٤٦، طبعة ١٣٩٤هـ، وانظر كتاب شعر عصر صدر الإسلام من منظور إسلامي للدكتور محمد عادل الهاشمي، مكتبة المنار١٤٠٦هـ.

(٢) الدر المنثور للسيوطي (١٠٠/٥).

قبل الأديب المسلم، وهذا الإبداع متوفر في الأدب الإسلامي قديمه وحديثه، وإنما تجاهله من تجاهل، وعَمِيَ عنه مَنْ عمي، خاصة بعد أن استحكمت «الشللية» في ساحة الأدب فأصبح التصنيف مبنيًا على آراء شخصية، نصيب العدل والإنصاف فيها قليل، إن لم يكن معدوماً.

أما قضية الوعظ والإرشاد فهي من القضايا التي يظلمها كثير من النقاد المعاصرين، فهي ليست عيباً فنياً في ذاتها، وإنما تكون عيباً حينما يقف عندها الأديب فلا يتجاوزها، أو عندما يقدّمها إلى الناس خالية من التصوير الفنّي.

والأدب الإسلامي ينظر إلى النصوص الأدبية التي تحمل وعظاً وإرشادًا بمنظار فني دقيق، فإذا توافر فيها الإبداع الفني صياغة، وخيالاً وصدقاً في التجربة، فهي أدب جميل وإن كانت وعظاً، وإذا لم يتوفر لها ذلك الإبداع فهي غير مقبولة فنياً.

ومما ابتلي به الناس في ظلِّ الآراء النقدية المذبذبة بين المقاييس الغربية والعربية، أنهم إذا سمعوا حكماً نقدياً تعلَّقوا به دون تدقيق وتمحيص، وإلا فإن من الأدب الوعظي ما هو في قمة الإبداع الفني، وما شعر أبي العتاهية عنا ببعيد، وفرق

obeikandl.com

كبير بين شاعر يتحدث عن الموت حديثاً جامداً جافاً، وبين آخر يصوّر لنا وقع الموت على نفسه تصويرًا يدفعنا إلى التفاعل معه والتأثر به.

إن مما دفع بعض نقاد هذا الزمان إلى مواجهة فكرة الأدب الإسلامي، بالرفض هو تأثرهم بالآراء النقدية الغربية والانشغال بها كلياً عن حقيقة الأدب الإسلامي فيكون استقراؤهم للنصوص ناقصاً، ومن ثم تكون أحكامهم النقدية غير سليمة؛ لأنهم يريدون أن يكون شاعر أو روائي إسلامي نسخة مكرّرة من شاعر أو روائي غربي، وهذا أمر مخالف لطبيعة البشر.

إني أرى في حكم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على شعر زهير ابن أبي سلمى رؤية نقدية جديرة بالاهتمام وهي مرتبطة بالجانب الفني حيث وصفه بقوله: كان لا يعاظل في كلامه، ولا يأتي بوحشي اللفظ، ولا يمدح أحدًا إلا بما فيه[1]، ففي هذه المقولة إشارات نقدية فنية.

فكلمة (عاظل) في مدلولها اللغوي تعني الاضطراب وعدم التنسيق فهي في القاموس تعني تراكم الأشياء فوق بعضها

(١) انظر ص : ٣٩ من هذا الكتاب.

obeikandl.com

دون ترتيب، فأنت تقول: عظل الجراد أي ركب بعضه بعضاً، وعاظل فلانٌ في كلامه أي: عقَّده ووالى بعضه فوق بعضٍ وكرَّره، وتقول عاظل الشاعر في القافية: أي علَّق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقلُّ بالإفادة، وتقول عاظل في الكلام: أي أتى بالرجيع من القول، فمعنى المعاظلة هنا إخلال بفنيَّة القول، وذلك ما لا يقع فيه الأديب المبدع أو الشاعر المجيد. فهنا مراعاة واضحة للجانب الفني؛ من قبل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ومثل ذلك قوله: ولا يأتي بوحشي اللفظ، إنها عبارة دقيقة تدخل في صلب الإبداع الفني فالكلمة الوحشية أو الحوشية تخلُّ بجانب الفن في النص الأدبي، ثم يشير عمر بن الخطاب إلى قضية أدبية مهمة يتحدث عنها النقاد كثيرًا، ويعدونها شرطاً من شروط الإبداع في النص الأدبي ألا وهي «صدق التجربة الشعورية»، فكلمة «لا يمدح أحدًا إلا بما فيه» توحي بهذا الجانب الفني المهم.

ومن هنا كانت قضية «الإبداع الفني» أصيلة في الأدب الإسلامي إنها تنبع من الرؤية الإسلامية الناضجة للأدب بصفة عامة، وليست قضية عابرة، ولا أمرًا وافدًا علينا، والأدب الإسلامي يرى أن الإبداع الفني ينبثق من التراث

الإسلامي أصلاً، ثم يفيد من التجارب الحديثة، أي أنه يُبنى على قاعدة أصيلة فهو ليس قفزًا في الهواء.

وأقول: إن شبهة إهمال الأدب الإسلامي للإبداع الفني باطلة، وإن روَّج المستغربون الذين لا ينظرون إلى الماضي ولا يرتبطون بتراثهم إلا بما يخدم وجهة نظرهم المحدَّدة القائمة على التساؤل الرافض لكل شيء يمت إلى أصالة الأمة الإسلامية القائمة على الدين بصلة، ولهذا يقولون بوجوب تبني المشروع الحداثي الذي يعني أن نتساءل عن الدين والشعر ما هما، أي دين، وأي شعر[1].

أما الأدب الإسلامي فهو يعرف الدين تماماً، ويعرف الشعر والأدب. ولهذا فهو يُشكِّل نقطة الضوء التي يمكن أن يستدل بها الجيل في سراديب الأدب المعاصر المظلمة.

ونختم هذه الفقرة بكلمات مشرقة كتبها سيد قطب ـ رحمه الله ـ موضحاً حقيقة التصوير الفني في القرآن الكريم، يقول: «ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته كما قد يُفهم من ظاهر الألفاظ، إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن، منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها،

(١) أدونيس، صدمة الحداثة، ص ٢٥٨ وما بعدها.

obeikandl.com

ومنهج الأحلام المهوِّمة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها، فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام، وتنضج بتأثراتها الإسلامية شعرًا وفناً.. وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية، فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن»[1].

(ج) الوضوح والمباشرة:

يقول المعارضون لمصطلح الأدب الإسلامي: إنَّ هذا المصطلح يجعل الأدب واضحاً ومباشراً في خطابه، والوضوح والمباشرة عدوّان لدودان لفنيَّة النص الأدبي.. والذي يثير العجب أن أصحاب هذا الرأي يعيبون الوضوح والمباشرة على إطلاقهما، ويدعون إلى الغموض من خلال الرموز الغائمة بحجة أن الأديب لا ينزل إلى مستوى القرَّاء، بل هم المطالبون بأنْ يرقوا إلى مستواه فإن فهموا فذلك ما يريد، وإن لم يفهموا فليس الأديب مسؤولاً عنهم، ويستدلون على ذلك بالمقولة المشهورة التي قالها أبو تمام لأبي سعيد الضرير وأبي العميثل عندما سألاه: لماذا لا تقول ما يُفهم، فردَّ عليهما أبو تمام بقوله: لِمَ لا تفهمان ما يُقال؟![2]..

(١) الظلال (٢٦٢٢/٥)، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٢هـ.

(٢) الآمدي، الموازنة، جـ ١ ، ص ٢١، تحقيق : السيد أحمد صقر، دار المعارف مصر، ١٣٩٢هـ.

obeikandl.com

وهو استدلالٌ في غير محلِّه، فما كان غموض أبي تمام مستغلقاً على الفهم، والذي سأله لم يكن جاهلاً بمعاني أبيات أبي تمام ـ كما يظهر لي ـ؛ فهو ذو مقدرة لغوية وأدبية استحق بها أن يكون هو الذي يجيز القصائد التي تُلقى أمام الخليفة، والذي أميل إليه أن سؤالهما لأبي تمام كان من قبيل إشعاره بمخالفته لعمود الشعر العربي، وهو أمر واضح عند أبي تمام، وبسببه كانت تلك الخصومة بين النقاد في شعره.

أقول: إنّ قضية الوضوح والمباشرة بحاجة إلى بيان حتى لا تظلَّ شبهة مثارةً تنطلي على ناشئة الأدب في بلاد المسلمين، فيظنون أن الوضوح والمباشرة عيبان مخلاّن بفنيَّة الأدب، ونحن نعلم أن التعميم في الأحكام النقدية غالباً ما يكون سبباً في قتل الموضوعية، وضياع الإنصاف في الحكم على الأديب أو على النص الأدبي.

ولابد من الإشارة إلى «الرمزية» عندما نتحدَّث عن قضية الوضوح والمباشرة؛ لأنها إنما طرحت في شكل قضية أدبية ملحَّة بعد اجتياح موجة الغموض والإبهام لمساحة كبيرة من النصوص الأدبية في العالم، وكان ذلك الغموض الموهم نتيجة طبيعية للرمزية التي نادت بتغيير وظيفة اللغة الوضعية بإيجاد

obeikandl.com

علاقات لغوية جديدة تشير إلى موضوعات غير معهودة تؤدي إلى تغيير مقام الكلمات ومجرى الصياغات المألوفة.. ولذلك لا يستطيع القارئ أو السامع أن يجد المعنى الواضح المعهود في الأدب الرمزي[1].

تحركت هذه الرمزية صوب المناطق المعتمدة في النفس البشرية، وجرَّت معها نصوص الأدب إلى أدغال الرموز والأساطير والإشارات الباطنية التي لا أثر فيها لضوء، ولا مكان فيها لشمس أو قمر أو نجوم!.

ونشأت بتأثير الرمزية مدرسة الغموض والإبهام في الأدب العالمي، وتبعه في ذلك ـ كما هي العادة ـ الأدب العربي، وكان طبيعياً أن تعادي مدرسة الغموض المولودة في أحضان الرمزية الوضوح والمباشرة عداءً عاماً لا مكان فيه للمناقشة الموضوعية الهادئة.

وسرت لوثة الغموض والرمزية الغارقة في الإبهام في عدد غير قليل من نصوص الأدب العربي المعاصر معتمدة على موجة الحداثة الفكرية التي نادت ـ وما تزال ـ بمعارضة المألوف

(١) د . عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ص ١٢١.

obeikandl.com

والخروج عليه كما هو شائع في كتابات أصحاب هذه الدعوة، وهنا أصبح «الوضوح» في الأدب هدفاً من أهداف دعاة الخروج عن المألوف يرمونه بسهام التشكيك، ويشنِّعون على الأدباء الذي يكتبون أدباً واضحاً فيه مقومات الصياغة الفنية الرائعة من أسلوب متقن ، وصورة بديعة، ومشاعر دفَّاقة مؤثرة.

ولعل من المصلحة هنا أن نحدِّد نقاطاً لتناول هذه الشبهة حتى لا يطول بنا المقام:

أولاً: نحن لا نقف ضد الرمز الموحي الذي يغلف الكلمة بغلاف رقيق تطالعك من ورائه فكرة الأديب، والأدب الإسلامي يحترم الرمز المعبِّر وقدوته في ذلك القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة المطهَّرة، فقد وردت في القرآن الكريم عبارات وجمل ترمز إلى المعنى المراد ولا تصرح به، وكذلك في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهنالك فرق كبير يغفل عنه كثير من الناس، بين الرمز الشعري الذي يستخدمه الشاعر للدلالة على فكرة ما، الرمزية التي هي مذهب أدبي غربي، ولذلك حصل الاضطراب عند بعض النقاد في قضية الوضوح والمباشرة.

ثانياً : الوضوح والمباشرة ليسا عيبين في الأدب بهذا

الإطلاق الذي يرد في بعض الدراسات النقدية، فهما ضرورتان ملحّتان لكل أديب يريد أن يوصِّل مشاعره وأفكاره إلى الناس، خاصة عندما يكون الأديب صاحب رسالة عظيمة في الأمة كما هو شأن الأديب الإسلامي، وإنما يُعاب الوضوح والمباشرة عندما يطغيان على فنيّة العمل الأدبي فتصبح القصيدة كلمات وجملاً مصفوفة لا يربط بينها إلا الوزن الشعري، وليس فيها روح الأدب، ولا جمال تصويره، ولا إيحاء عباراته. فعندما يقول شاعر مخاطباً شخصاً ما:

تعيش وتبقى ما حييت وتسلمُ

فإنه بهذا المطلع الخاوي الذي لا روح فيه يخرج من مفهوم فنيَّة الأدب، والأدب الإسلامي لا يقر «فنيّاً» مثل هذه الكلمات الجافة الجامدة، وهذا الجفاف والجمود لم يأت من قبل الوضوح والمباشرة كما قد يتخيَّل البعض، وإنما أتى من قبل خواء المعنى وعدم نجاح الشاعر في نقل تجربة شعورية صادقة.

ولو كان الوضوح والمباشرة هما العيب، لألغينا مساحة شاسعة من الآداب العالمية، ومحوناها من خارطة الأدب، وذلك ما لا يقول به ذو بصيرة، فمثلاً عندما يقول الشاعر الإسلامي محمد محمود الزبيري ـ رحمه الله ـ:

خرجـنا من السجن شُمَّ الأنو ف كما تخرج الأُسْدُ من غابها
نمـرُّ على شفـرات السيـوف ونأتي المنـيَّة من بابـها[1]

فإن في هذين البيتين وضوحاً ومباشرةً، ولكنهما شعر مؤثر، وفيهما تصوير فني جميل لثبات الإنسان على مبادئه التي يؤمن بها، فالفنية هنا موجودة ولم تكن المباشرة، أو الوضوح عيباً بالرغم من وجودهما معاً.

وبهذه النظرة النقدية العادلة نستطيع أن نردَّ مثل هذه الشبهة الباطلة.

ثالثاً: الرمز الموحي مطلوب في النص الأدبي، والأديب المقتدر هو الذي يحسن استخدام الرموز وتوظيفها، سواء أكانت رموزاً تاريخية أم معاصرة، وسواء أكانت بشرية أم غير بشرية، بل إن الشاعر إذا استخدم رمزاً موحياً وأحسن توظيفه في النص الأدبي استطاع أن يؤثر تأثيرًا أعمق، وأن يُحقق للقارئ متعة أكبر، وإنما يأتي الخلل عندما يصبح الرمز هدفاً ووسيلة لا يتنازل عنها الشاعر فإنه بهذا يخرج عن إطاره الصحيح ويتجاوز حدَّه المعقول.

(١) الزبيري شاعرًا ومناضلاً، الكتاب الثالث في سلسلة كتاب الكلمة، دار العودة بيروت.

obeikandl.com

رابعاً: الوضوح والمباشرة موجودان في كل نص أدبي يحمل فكرة، وإنما تختلف النسبة من نص إلى نص، لكنَّ الأدباء الذي يجعلون الرمزية غاية وهدفاً، ويسعون إلى الغموض والإبهام لا يعنيهم أن يفهم القارئ ما يكتبون، وإنما يعنيهم أن يتفنَّنوا في استخدام أساليب الرمزية الغامضة.

وباستطاعة كل أديب مقتدر أن يستخدم التعابير اللغوية استخداماً مباشرًا، ولكنه مفعم بأثر تجربته الشعورية التي تتناغم مع الإيقاع الشعري الذي يستخدمه.

أليس شعر المتنبي واضحاً ومباشراً؟

بلى، هو كذلك، فلماذا أحبه الناس وما زالوا يحبونه؟

ولماذا لم يكن وضوحه ومباشرته سببين في رفضه وحاجزين أمام إبداعه؟

.. وغير المتنبي كثير..

ونخلص من هذا إلى القول: بأن الوضوح والمباشرة ليسا مما يعوق العملية الفنيّة، وبأن الأدب الإسلامي لا يقف ضدَّ الرمز الموحي ولا يقبل الجمود والجفاف في النص الأدبي، وإنما ينظر إلى «الوضوح والمباشرة» بمنظار نقدي سليم.

(د) تكفير الأديب المسلم:

تثار شبهة تكفير الأديب المسلم في مجالس أدبية كثيرة، حيث يثار السؤال التالي: عندما نصنِّف الأدباء المسلمين بناءًا على مصطلح الأدب الإسلامي فإنا سنقول: هذا أديب إسلامي، وهذا غير إسلامي، ومعنى ذلك أننا قد أخرجنا أديباً مسلماً من دينه بهذا الحكم، وذلك ما يُدخلنا في مشكلة «تكفير المسلم» التي تُعدُّ من أعقد المشكلات وأخطرها..

وقد سمعتُ في مواقف متعددة من يقول: تريدون يا دعاة الأدب الإسلامي أن نحكم على أدباء المسلمين الكبار بالكفر إذا لم يتحقق في شعرهم وأدبهم ما تريدون؟؟

هكذا تُثار هذه الشبهة، فكيف نردُّها، وبماذا نجيب عن أسئلة السائلين؟!

أقول بدءًا: إنَّ مصطلح الأدب الإسلامي لا يُكفِّر أحداً بهذه الصورة المنصوص عليها في السؤال، وإن الناقد الإسلامي لا يقول عن أديب مسلم: إنه كافر لأنَّه قال كذا، وهذه كتب الأدب الإسلامي مطروحة بين يدي الناس وبإمكان من يحمل مثل هذه الشبهة أنْ يرجع إليها، فإن رأى فيها تكفيرًا لمسلم بعينه فله أن يثير شبهتَه بين الناس بياناً للحق، وحرصاً عليه.

obeikandi.com

إذنْ هناك قاعدة نعتمد عليها ـ قبل مناقشة شبهة التكفير ـ ألا وهي عدم وجود هذه الشبهة أصلاً في مصطلح الأدب الإسلامي.

فما حقيقة الأمر إذنْ؟

سبق أن ذكرنا أن الأدب الإسلامي ينبثق من «التصوُّر الإسلامي لهذا الوجود» فهو يُعبر عن خلجات النفوس، ويُجسد آمالها وآلامها، ويُصوِّر قضايا الأمة الكبرى والصغرى، والهموم العامة والخاصة من خلال «التصوُّر الإسلامي للكون والحياة والإنسان».

فما انبثق من هذا التصوُّر الشامل فهو أدب إسلامي، وما وافقه فهو أدبٌ موافق للأدب الإسلامي، وما خالفه فهو أدب غير إسلامي.

فقاعدة الحكم على الأدب والأديب هي «التصوُّر الإسلامي» وهذا التصوُّر قد يكون مفقودًا عند أديب مسلم، ودليلنا على ذلك عددٌ غير قليل من أدباء مسلمين «بهويتهم» ولكنَّ تصورهم للحياة وما يجري فيها ليس إسلامياً، فمنهم من قاعدة التصوُّر عنده يسارية، ومنهم من قاعدته وجودية، ومنهم من قاعدة تصوُّرهِ علمانية، فهو بهذا أديب غير

obeikandl.com

إسلامي، ونحن بهذا ننفي عنه إسلامية التصوَّر ولا نقول إنَّه كافر أو خارج عن الإسلام؛ لأن هذا الحكم ليس موكولاً إلينا.

ونتساءل هنا: ما الذي جعلنا نقول عن فلان من الأدباء إنه «واقعي اشتراكي»، وعن فلان إنه «علماني»، وعن الآخر إنه «يساري»، مع أنهم جميعاً يحملون بطاقات قد سجل فيها أمام الديانة «مسلم»؟!

أليس هو التصوُّر الذي حمله كلُّ واحد منهم وانبثق منه أدبه؟

إن الأديب المسلم الذي يحمل فكرًا إلحادياً لا يُسمى «أديباً إسلامياً»؛ لأن صفة الإسلامية المبنية على التصور ليست موجودة عنده.

وأمثِّل على ذلك بأبي نواس الشاعر العباسي «المسلم» الذي كان يحمل تصوراً إباحياً بعيدًا عن «التصوُّر الإسلامي» هل أسميِّه أديباً إسلامياً؟!

الجواب الصحيح: كلاَّ؛ لأنَّ تصوُّره ليس إسلامياً، أي أنه شاعر غير إسلامي، فهل يعني قولي هذا تكفير أبي نواس؟ كلا، ليس الأمر كذلك، فإني هنا أنفي عنه صفة «التصوُّر الإسلامي»، ولا أنفي عنه «الملة والدين». ولا أظن عاقلاً منصفاً سيقول: إن أبا نواس كان أديباً إسلامياً، وأين «الإسلامية» من شاعر قضى حياته في اللهو والمجون؟!

قد يقول قائل هنا: فما تقول في القصائد المعدودة المحدودة التي قالها أبو نواس بعد أن طوح به الشيب، وغمرته الشيخوخة، وفيها صورٌ من الزهد والتوبة إلى الله؟

أقول: هذه قصائد جميلة تحظى من الأدب الإسلامي بالعناية والقبول، ونرجو أن ينال بها الشاعر مغفرة من ربه، وهي في مضمونها تتفق مع التصوُّر الإسلامي للأدب، ولكنها لا تجعل من أبي نواس «أديباً أو شاعرًا إسلامياً»؛ لأنها قد جاءت شذوذًا عن قاعدة تصوره الكبرى القائمة على رؤية غير إسلامية، جعلت أبا نواس يستحلُّ في شعره الماجن ما يتعارض مع التصوُّر الإسلامي، وما دام هذا التصوُّر مفقودًا ـ في الأصل ـ عند الشاعر، فلا ضيِّر أن يُوصف بأنه «شاعر غير إسلامي».

وأضرب مثالاً آخر بالشاعر «محمد إقبال» الذي أطرب الوجود بشعره الإسلامي الرائع، ماذا نقول عنه؟

نقول: إنه أديب إسلامي؛ لأن شعره ونثره انبثقا من التصوُّر الإسلامي، فهذا التصوُّر هو القاعدة الكبرى التي يقوم عليه بناء أدبه الشامخ.

وقد يسأل سائل: أليس في شعر محمد إقبال ما قد

يخرج به عن إطار هذا التصوُّر، فإذا حدث ذلك فكيف نطلق عليه صفة الإسلامية؟!

وأقول: إذا كان التصور الإسلامي هو الأساس عند الشاعر فإنه شاعر إسلامي، وما يحدث عنده من خلل إنما هو من الخطأ الذي ينبَّه عليه، ولكنَّه لا ينفي عنه الصفة؛ لأن الخطأ هنا جاء شذوذاً عن القاعدة الصحيحة التي يقوم عليها إنتاج الشاعر(١).

والحكم ـ كما أشرنا ـ يتم من خلال القاعدة الكبرى للتصوّر عند الأديب، وليس من خلال العثرات والأخطاء التي يقع فيها، مما يخالف قاعدة التصور عنده.

ويمكن أن ألخِّص هذا الموضوع في النقاط التالية:

١ ـ الأدب الإسلامي لا يُكفِّر أديباً مسلماً ـ كما أوضحنا ـ وإنما يحكم على إنتاجه من خلال الرؤية الإسلامية المبنية على التصوُّر الإسلامي للكون والحياة والإنسان، والخالق عز وجل.

٢ ـ يمكن أن نقول عن أديب مسلم منحرف التصوُّر والتفكير: إنه أديب غير إسلامي.

(١) انظر كتاب: فلسفة إقبال، والثقافة الإسلامية في الباكستان، تأليف الأستاذ الصاوي شعلان، والأستاذ الأعظمي.

obeikandl.com

٣ ـ الأديب المسلم الملتزم سلوكاً وفكراً، والذي يكتب من خلال تصور إسلامي سليم هو الأديب الإسلامي بحقّ، شريطة أن يكون مقتدراً من الناحية الفنيَّة.

٤ ـ الأديب غير المسلم الذي كتب أدباً متفقاً مع التصوُّر الإسلامي لا يُسمَّى أديباً إسلامياً، والأدب الإسلامي يفتح صدره لما يكتبه هذا الأديب غير المسلم من أدب متفق مع التصوّر الإسلامي، ويرحب به، والقدوة في ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام الذي استنشد شعر أمية بن أبي الصلت مع أنه مات كافراً، وقال بعد سماع شعره: «إن كاد ليُسلم»[1]، فقبل شعر أمية المتفق مع التصوُّر الإسلامي، ولكنه لم يقل عن أمية إنه شاعر إسلامي.

٥ ـ هنالك ترابط قوي بين فكر الأديب وعقيدته، وبين سلوكه وأدبه حيث يندر أن ترى أديباً مسلماً منحرفاً في فكره وعقيدته، ملتزماً في سلوكه وأدبه، إذ لابد من تأثير هذه الأشياء في بعضها، ونضرب مثلاً بأحمد شوقي، فإن له قصائد رائعة في بعض قضايا الإسلام، وفي مقدمتها

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٥) ، عن الشعر، ترقيم محمود فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ.

obeikandl.com

مدح النبي عليه الصلاة والسلام، وقضية سقوط الخلافة العثمانية، ولكن له مقابل ذلك قصائد فيها انحراف عن التصوُّر الإسلامي الصحيح، حيث إن له خمريات وأبياتاً فيها انحراف عقدي كالذي حدث في قصيدته التي عارض بها نهج البردة، وديوانه يحوي هذا وذاك، والأدب الإسلامي يقيس هذا الشعر بمقياس التصوُّر الإسلامي، كما أسلفنا، وبحسب القرب أو البعد عن هذا التصوُّر يكون الحكم له أو عليه.

وهنا يتضح للباحث عن الحقيقة أن مصطلح الأدب الإسلامي قائمٌ على أسس ثابتة لا يستمدها من فراغ، ولايتلقَّفها من البشر، وإنما يستمدها من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولذلك فهو لا يتجنَّى على أحد ولا يكفِّر مسلماً، ولا يلقي أحكامه جزافاً، وهو يحثُّ الأديب المسلم على الالتزام بالرؤية الإسلامية، ولكنّه لا يلزم أحدًا بهذه الرؤية أو يسوقه إليها بالعصا إذا لم يكن الأديب نفسه مهيّأ لهذا الالتزام مقتنعاً به.

(هـ) البدعة في مصطلح الأدب الإسلامي:

يثير بعض المعارضين لمصطلح «الأدب الإسلامي» شبهة

obeikandl.com

«البدعة» في هذا المصطلح، فيقولون: إنه بدعة معاصرة، لم يقل بها أحد من سلف هذه الأمة، فهل نحن أحرص على الإسلام من أولئك؟

ونجيب عن هذه الشبهة بما يلي:

أولاً: لا ينطبق على مصطلح «الأدب الإسلامي» معنى «البدعة» المذمومة التي تأتي مخالفة لما شرع الله، كما لا ينطبق عليه معنى «البدعة»[1] على عمومه؛ لأنه ـ كما ذكرنا ـ يقوم على تصوُّر، وهذا التصوُّر موجود منذ أن نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام، ومنذ أن كان للرسول ﷺ ولسلف هذه الأمة ـ رضي الله عنهم ـ موقفهم الواضح القائم على ذلك التصوُّر الإسلامي للأدب ودوره في حياة الأمة، وتنحصر الجدَّة في الأدب الإسلامي في تسمية المصطلح نفسه ـ بناءً على منهجية مستمدة من القرآن والسنة، وسنبيِّن هذا فيما بعد ـ إن شاء الله ـ .

ثانياً: ليس صحيحاً ما يقوله أصحاب هذه الشبهة من أن السلف لم يشيروا إلى إسلامية الأدب، بل الصحيح أنهم أكدوا

(١) انظر: البدعة، د/ عزت علي عطية، ص ١٥٧ وما بعدها، دار الكتاب العربي، لبنان، ط ٢، ١٤٠٠هـ.

obeikandl.com

ذلك في مواقف كثيرة، وأشاروا إلى ضرورة مراعاة تعاليم الإسلام في الأدب، فلم يقرُّوا لشاعر أو أديب بالخروج عن تلك التعاليم، ولكنهم لم يضعوا مصطلحاً بهذا الاسم؛ لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى وضع مصطلح إسلامي في ظل خلافة وجهتها العامة إسلامية، ولها مواقفها الواضحة من أصحاب الأدب المنحرف، تأديباً وإنكاراً[1].

ثالثاً: لم يكن الانحراف الأدبي في عصور الإسلام الأولى منظَّرًا، أي أنه لم يكن قائماً على «أيديولوجية» لها فلسفتها ونظامها القائم الذي تدعمه السلطة، وإنما كان ذلك الانحراف ـ غالباً ـ شخصياً ينبثق من انحراف شخصي لأحد الأدباء، ثم يكون له أتباعه ومقلِّدوه، وكانت الدولة الإسلامية رافضةً لهذا الانحراف ملاحِقةً له ـ وإن لان موقفها منه أحياناً ـ ولذلك لم يكن الناس في حاجة إلى وضع نظرية أو مصطلح للأدب الإسلامي؛ لمواجهة نظرية معارضة، وإنما كان دوره مقتصرًا على نقد ذلك الانحراف ورفضه، وبيان سوئه للناس.

(١) انظر: الالتزام الإسلامي في الشعر، د/ ناصر الخنين، ص ١٠٣ وما بعدها، دار الأصالة، الرياض، ط ١، ١٤٠٨هـ.

obeikandl.com

أما الانحراف الفكري والأدبي في العصور المتأخرة فهو انحراف قائم على منهج له أسسه وتصوُّراته، وله روّاده ودعاتُه، بل وله دوله التي تتبنَّاه وتسعى إلى دعمه ونشره، وقد وضعت له النظريات والمناهج، وكتبت عنه الدراسات المنهجية والبحوث الأكاديمية، فكان لزاماً على المسلمين الملتزمين أن يكون لهم منهجهم المستقل ونظريتهم الأدبية الإسلامية القائمة على التصوُّر الإسلامي؛ لأن هذه المنهجية هي التي تستطيع مواجهة الانحراف الأدبي «الممنهج» في عصرنا هذا، فكان مصطلح الأدب الإسلامي الذي قام على تصوُّر إسلامي كما أشرنا من قبل.

وننتقل الآن إلى تفاصيل بعض النقاط الموجزة، فنقول:

إنَّ البدعة تكون مذمومة مرفوضة عندما تأتي مخالفة لمنهج الإسلام الصحيح، خارجة عن إطاره الذي رسمه القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح ومواقفهم، فهي بهذا المفهوم مرفوضة حتى لو كان فيها زيادة في الطاعة يتوهم أصحابها أنها تقربهم إلى الله أكثر مما ثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، أليس هو القائل في شأن من يتنزَّه عن بعض ما كان يفعله ﷺ: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه، فو الله

إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[1].

والبدعة بهذا المعنى المرفوض بعيدةٌ كل البعد عن مصطلح الأدب الإسلامي؛ لأنه يقوم على رؤية إسلامية مؤيَّدة بالكتاب والسنة ومواقف السلف الصالح.

إن هذا المصطلح من باب التجديد في أسلوب المواجهة بما يتلاءم مع حجم القضية المعاصرة، ولولا هذه النظريات والمدارس القائمة على مناهج منحرفة مدعومة باتجاهات رسمية عالمية، لما احتجنا في هذا العصر إلى مصطلحات «الفكر الإسلامي» و«الاقتصاد الإسلامي» و«الإعلام الإسلامي» و«الأدب الإسلامي»، إذنْ فالقضية قائمة على مبدأ الإعداد لمواجهة الانحراف والفساد، لا بأقوال ارتجالية، وأفكار مبتدعة كما يظن من يلقون هذه الشبهة، ولكن بناءً على الرؤية الإسلامية المنبثقة من ديننا العظيم.

فإذا كان ـ مثلاً ـ الشاعر الحداثي هو: «الذي يخوض معركة التحرُّر من القوالب السلفية التي تحاول بدورها أن تشلّه وتعزله عن حركة التاريخ، وعن التغيير، وتُبقيه في عقم الثبات، هذه القوالب السلفية في الفكر والحياة معاً، تتحول

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير، (١٣٢/٥)، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٣٩٩هـ.

إلى دعائم مشتركة، تشارك بشكل أو آخر في الحيلولة دون تحقيق التحرر الكامل»[١].

أقول: إذا كان ذلك هو الشاعر الحداثي كما صوَّره منظِّر «مذهب الحداثة» العربية أدونيس، فإن الأدب الإسلامي يرسم صورة أخرى مشرقة ناصعة للشاعر الإسلامي، «فهو الشاعر الذي يتخذ من التصوُّر الإسلامي قاعدة انطلاقه ويبدع لنا أدباً رائعاً قائماً على عظمة الثبات على المبدأ وليس على الثورية والانحراف»[٢].

وإذا كان الشاعر عند منظّري الحداثة هو: «الذي لا ينطلق من فكرة واضحة محدَّدة، بل من حالة لا يعرفها هو نفسه معرفة دقيقة؛ ذلك أنه لا يخضع في تجربته للموضوع أو الفكرة أو الأيديولوجية أو العقل أو المنطق»[٣].

فإن الشاعر عند منظِّري الأدب الإسلامي هو الذي ينطلق من فكرة واضحة ومن حالة يعرفُها، ومن رؤية إسلامية صافية يبدع من خلالها أدباً مؤثرًا يرقى بالأمة ولا يهبط بها[٤].

(١) أدونيس، زمن الشعر، ص ٥٧.
(٢) د/ عدنان النحوي، الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، ص ٧٨ وما بعدها، ط١، ١٤٠٧هـ.
(٣) جمعان بن عايض الزهراني، أسلوب جديد في حرب الإسلام، ص ٣٣ وما بعدها.
(٤) د/ نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص ٢٠ وما بعدها.

obeikandl.com

إن «مليار» مسلم يعيشون في هذا العالم النكد بأمسِّ الحاجة إلى أدب يرقى بنفوسهم وعقولهم، ويصدُّ عنهم هجمات الانحراف والضياع التي تشنها نظريات الأدب المنحرف في هذا العصر[1].

ولقد حرص الرسول عليه الصلاة والسلام منذ نزول الوحي عليه على رسم طريق الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، ولقد قال عن الشعر المنحرف: «لإن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلئ شعراً»[2]، وقال عن الشعر الإسلامي الصافي: «إن من الشعر لحكمة»[3]، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تستدل في كلامها بالشعر الجيد السامي، وأوصت بتلقينه للناشئة، وبذلك أوصى معاوية، وثبت عنهم جميعاً رفضهم للشعر المنحرف ومعاقبتهم للشعراء المنحرفين في أحاديث كثيرة وأخبار صحيحة، ليس هذا مكان سردها، أفبعد ذلك يدَّعي مدَّع أن مصطلح الأدب الإسلامي بدعة لم يقل بها السلف؟!

(١) د/ عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، المقدمة.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٥٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب (١٠٧/٧).

obeikandl.com

(و) الأدب الإسلامي والنظرة الأحادية:

تثار هذه الشبهة منذ زمن بعيد بالصيغة التالية: الأديب العالمي هو الذي يتخلَّص من «النظرة الأحادية» إلى العالم من حوله، فتكون له رُؤاه المتعدَّدة القائمة على «مرونته» في التعامل مع الأفكار والمبادئ الأخرى، والأدب الإسلامي يقوم على «النظرة الأحادية» التي لا تتحقق معها الرؤية العامَّة والعالميّة.

أما هذه الأيام، فإن هذه الشبهة تثار بعينها، ولكن بأسلوب آخر فيُقال: النظام العالمي الجديد ينادي بثقافة عالمية موحدة لا فواصل بين العقول والأفكار فيها، فالناس جميعاً ينتمون الآن إلى ثقافة واحدة تقوم على فكرة «الإنسانية» التي لا تعرف الحدود، والأدب الإسلامي بنظرته الأحادية يدعو إلى التميُّز، وإقامة الفواصل بينه وبين الآداب العالمية المخالفة له في الوجهة الثقافية. هكذا تُثار هذه الشبهة، فما موقفنا منها؟!

أولاً: نؤكد أنه لا تعارض بين «أحادية النظرة» وتعدُّد الثقافة ومصادر الفكر في حياة الإنسان السويِّ، ولذلك فإنه من الخطأ الكبير ما يُقال عن حيلولة النظرة الأحادية دون تعدُّد مصادر ثقافة صاحبها؛ فالثقافة بمعناها العام ليست

obeikandl.com

حكراً على أحد من البشر، والاطلاع على العلوم والأفكار المختلفة شيء، والمرونة التي تؤدي إلى الذوبان في تلك الأفكار شيء آخر.. والأدب الإسلامي قائم على تصوُّرٍ إسلامي واضح لا غبار عليه، ولا يُجيز لنفسه أن يتركه بدعوى تعدُّد الرؤية الثقافية، ولكنه مع ذلك يُومن بأنَّ الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها.

ثانياً: أحادية النظرة بهذا المعنى الذي ألمحنا إليه هي الطريق السليم إلى التميُّز عن الآخرين التميُّز في الفكر وأصول الثقافة، وقبل ذلك كله في الاعتقاد أي في «الدين».

وإذا كان هذا التميُّز مطلباً فطرياً في الإنسان، وهدفاً تسعى إليه الأمم والشعوب في ظل أفكارها ومبادئها الخاصة بها، فإنه مطلب شرعي في دين الإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

وهذه الآية صريحة كل الصراحة في رسم إطار التميُّز للإنسان المسلم، وهو تميُّزٌ فريدٌ؛ ذلك لأن الله قال:﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[1].

إذن فالدين الإسلامي هو الدين الذي دعا إليه الأنبياء جميعاً، وهو قائم على رؤية متميزة كل التميُّز عن الرؤى العقدية والفكرية والثقافية التي تقوم عليها المذاهب البشرية، بل والديانات السماوية المحرَّفة، وهذا التميُّز يقوم في أساسه على «رؤية واحدة» لا يجوز للمسلم الحقّ أن يتزحزح عنها قيد أنملة، ولا يصح له أن يستقي أصول ثقافته وفكره وآدابه من سواها، ولهذا قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بعد هذه الآية: ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾[2].

وهذه الآية صريحة كما نرى في تأكيد «الرؤية الواحدة» مهما اختلفت الرؤَى، ومهما أصرَّ أصحاب التعدُّدية الفكرية على مواقفهم؛ ذلك لأن هذه الرؤية الواحدة هي التي تبني «القاعدة الأمّ» لفكر الإنسان وثقافته وآدابه ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ أي: إنّ أولئك الذين يعترضون على

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

هذه القاعدة الصلبة والرؤية الواحدة قد يحاجُّون الرسول عليه الصلاة والسلام فيها، فإذا حاجُّوه فإن عليه ـ بأمر من الله ـ أن يعلن لهم الثبات عليها دون تردُّد أبداً، فإذا ما تولَّى أولئك فأمرهم إلى الله وهو بصير بعباده.

وهذه المعاني التي يغفل عنها كثير من الأدباء المعاصرين هي القاعدة التي يقوم عليها التصوُّر الإسلامي في أدبنا.

ويبرز هنا سؤال: هل تتعارض هذه القاعدة وهذا التصوُّر مع تنوع مصادر ثقافة الأديب الإسلامي؟

الجواب الذي لا احتمال لغيره: كلا، ثم كلا .. فالأديب الإسلامي مطالب بالاطلاع على الثقافات المختلفة وأساليب الأدب المتعددة، مع أن له نظرته الموحَّدة القائمة على تصوّره الإسلامي الثابت.

ومن هنا ندرك أن شبهة «التميُّز» المثارة هي خاصيَّة يتميز بها الأديب الإسلامي عن سواه، ويسلم بها فكره وأدبه من الاضطراب، والذوبان، والسير الأعمى وراء كل ناعق ثقافي أو أدبي ينادي إلى التعدُّدية الثقافية الشوهاء.

وإذا كان التميُّز مطلباً إسلامياً بناءً على نصوص القرآن

obeikandl.com

والسنة المطهرة[1]، فإنه قاعدة لابد من الاتكاء عليها في مواجهة انحراف الثقافات والآداب الأخرى، وهو أيضاً قاعدة يمكن أن ينطلق منها الأديب الإسلامي إلى العالمية.

فالعالمية في الأدب لا تعني انفلات الأديب من قيمه وملاحقة المذاهب والأفكار الأخرى المنتشرة في العالم ملاحقة التابع المقلِّد، ولكنها تعني الانطلاق من رؤية خاصة وقاعدة أدبية مستقلة إلى آفاق إنسانية رحبة.

وهذا التميُّز هو الذي يحمي الأديب الإسلامي من الانخداع بدعاوى النظام العالمي الزائف، فيقف أمام هذه الدعاوى شامخاً، ويفنِّدها ويبيِّن للأجيال زيفَها وتضليلها، وهو بذلك يسلم من تلك الرؤية الزائفة التي ينظر بها بعض الأدباء المنحرفين إلى أحداث العالم المعاصر.

الأديب الإسلامي يتناول القضايا الكبرى تناولاً واعياً، فإذا تحدَّث عن النظام العالمي الجديد تحدَّث عنه حديث الواعي الذي يدرك أنه استعمار صليبي وهيمنة غربية جديدة، بينما نجد من أدباء ونقاد العرب ممن ينادون إلى التعددية الثقافية والفكرية الزائفة من يرى النظام العالمي الجديد

(١) انظر ص : من هذا الكتاب.

obeikandl.com

وسيلة من وسائل التقدم لأمتنا؛ يقول أحدهم في كلمة ألقاها في (مهرجان أصيلة) في المغرب العربي: «النظام العالمي الجديد سيفرز ثقافة جديدة تحاول إنقاذ العالم من أهم أربعة أخطار وهي القنبلة النووية، ومشكلة تلوث البيئة، وتفجر الصراعات العرقية، ومشكلة الفقر»[1].

ويبدو أنَّ هذا الكاتب «المثقَّف»! .. لم ير ما يجري في البوسنة والهرسك، وفي الشيشان، وطاجكستان، وكشمير، ولم ير الهياكل العظمية التي تعرضها وسائل الإعلام في أنحاء العالم، ولم يفهم معنى التآمر العالمي على الجهاد الأفغاني، ولا معنى التكالُب الصليبي اليهودي على فلسطين ولذلك كانت صورة النظام العالمي في ذهنه صورة حسنة.

وبمثل هذا الوعي الناقص قال أحدهم: «النظام العالمي الجديد يستوجب تفكيرًا جديدًا، رائده هو كيف نتأقلم»[2].

وكأنه يريد أن نصنع ما تصنع الحرباء ذات التعدُّدية في اللون؛ حيث إنها تغيّر لونها على حسب الموقع الذي تكون فيه.

إن الأديب الإسلامي يظل بمنجاة من هذا التخبُّط؛ لأن

(١) جريدة عكاظ، ملحق دنيا، عدد ٥٢، في ٢٠ صفر ١٤١٣هـ.
(٢) جريدة عكاظ، العدد نفسه.

obeikandl.com

التصوُّر عنده إسلامي قائم على تميُّز في الفكر والثقافة والأدب، وليس معنى هذا التميُّز أن يكون الأديب الإسلامي غائباً عما يجري في هذا العالم ـ كما يخطر ببال بعضهم ـ كلا فإن رؤية هذا الأديب أعمّ وأشمل، وهنالك قدر مشترك من القضايا والمواقف بين أدباء العالم على اختلاف أفكارهم وثقافاتهم ومعتقداتهم، مع وجود الفوارق التي تميِّزهم عن بعضهم.. فالحديث عن المظلومين والمشردين، وتصوير آهات اليتامى والثكالى.. والحديث عن العدل وقيمه، والحرية وآثارها إلى غير ذلك من القضايا، كل ذلك من الأمور المشتركة بين أدباء العالم.

ولكن مناقشتها تظلُّ موصولةً بعقيدة كل أديبٍ وفكره وثقافته الخاصة به، والأديب الإسلامي يتفاعل مع تلك القضايا العالمية تفاعلاً إيجابياً مبنياً على تصوُّره الإسلامي المميَّز.

إذن فالتميُّز والنظرة الموحدة إلى الأمور من أهم خصائص الأدب الإسلامي الذي تضرب جذوره في تربة الإسلام الخصبة النقية، ومصطلح الأدب الإسلامي قائم على ركائز ثابتة، من بينها هذا التميُّز في النظرة إلى الوجود وما يجري فيه.

obeikandl.com

٣ ـ الأدب الإسلامي والتجربة الشعورية:

يمكننا أن ندخل إلى موضوع التجربة الشعورية من بوَّابة تلك العبارة التي أوردها السيوطي في كتابه (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) حين نقل حديثاً ورد فيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لعبد الله بن رواحة: «ما الشعر؟ فقال: شيء يختلج في صدر الرجل فيخرجه على لسانه شعرًا»[(١)].

«يختلج في صدر الرجل»، هذه العبارة صريحة كلَّ الصراحة في التعبير عما نسمّيه اليوم التجربة الشعورية، ولها أهميتها في إعطاء صورة متكاملة مع غيرها من الصور الأخرى القادمة ـ بإذن الله ـ عن الرؤية الإسلامية الشاملة للأدب.

فكلمة «يختلج» التي قالها ابن رواحة تعبّر بوضوح عن حقيقة ما يجري في قلب الشاعر قبل أن ينفثه شعرًا مشحوناً بعواطفه المتأجِّجة، فهي كلمة تدل في معناها المعجمي على الحركة والاضطراب فهي من خَلَج يَخْلجُ بمعنى جذب، وغمز،

(١) الدر المنثور (٩٩/٥)، دار المعرفة، د . ت .، وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٨/١)، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات، د.ت.

obeikandl.com

وانتـــزع وحـــرّك، وشـــغل، وطعن،.. وتخلَّج بمعنى اضطرب وتحرَّك[1].

وهي كلمة دقيقة في تصوير ما يجري في نفس الشاعر، وبهذا تثبت قيمة «التجربة الشعورية» في النص الأدبي، بل إنها النَّواة الأولى التي ينبثق منها النص الذي يكتبه الأديب شاعرًا كان أم ناثرًا، ولعل ذلك هو الذي جعل الأستاذ محمد قطب يقول عن الفنان إنه لايمكن أن يعبِّر إلا عن انعكاس الحياة في نفسه، ولا يمكن أن يكون تعبيره إلا من الزاوية التي يرصد منها الوجود، ويتلقَّى منها الإيقاع»[2].

فانعكاس الحياة في النفس، هو «التجربة الشعورية»، وهو أيضاً «ذلك الاختلاج في الصدر» الذي عبَّر عنه عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ .

وهذه التجربة الشعورية ليست منقطعة عما يجري في الحياة مما يشاهد الأديب ويستمع إليه، بل إن بينهما ترابطاً قوياً، بل إن التجربة الشعورية لا يمكن أن تنشأ، ولا أن تنضج إذا نشأت إلا من خلال تفاعل صاحبها مع ما يدور حوله من

(١) القاموس المحيط (١/١٨٦).
(٢) منهج الفن الإسلامي، ص ١٦، دار الشروق.

obeikandl.com

الأحداث وما يجري أمامه من الوقائع والمواقف، وهو أمرٌ يدفع الأديب إلى اتخاذ موقف ما، ثم التعبير عن هذا الموقف «ولكل فنان صادق موقف من الكون والحياة أراد أم لم يرد، موقف تحدّده طريقة تصوُّره لهذا الكون وارتباطاته، وطريقة تفاعله مع الحياة والأحداث»[1].

ويعبِّر سيد قطب عن هذا المعنى بأسلوب آخر فيقول: «ولقد وجَّه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون وإلى خفايا النفس البشرية، وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن»[2].

إذن فالتفاعل بين بدائع هذا الكون وخفايا النفس البشرية هو المادة الخام التي يتكون منها الشعر والفنّ، وما هذه المادة بهذه الصورة إلا ذلك «الاختلاج» الذي أشار إليه ابن رواحة.

وبهذا ندرك حقيقة مهمة يتجاهلها بعض النقاد المعاصرين، الذين يمّموا وجوههم شطر الغرب، ألا وهي وجود الرؤية الفنيَّة للأدب عندنا منذ فترة مبكرة، وهي رؤية لا تجعل من الشعر عملاً لغوياً نظمياً فقط، بل إنها تعطيه وصفه

(١) المرجع السابق، ص ١٦.
(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٦٢٢)، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٢هـ.

obeikandl.com

الحقيقي القائم على تشابك العلاقة بين النفس البشرية وانفعالاتها من الداخل، وبين ما يجري في واقع الحياة من الخارج.. وهذا الوصف بهذه الصورة مهم جداً في نظرتنا الفنية إلى الأدب الذي نريد، الأدب الذي يعبِّر عن انفعالات الشاعر الصادقة، ويحمل زخماً من المشاعر يعطي النص الأدبي عمقاً في المعنى، يجعل قيمته الفنية كبيرة في نفوس المتلقين.

وها هو ذا أبو هلال العسكري يقول: «سمعت أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبياني:

ألم تر أن الله أعطاك سُورة ... ترى كلَّ مَلْك دونها يتذبذبُ
بأنك شمسٌ والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهنَّ كوكبُ

ثم قال: أخبرنا أبوبكر محمد بن يحيى بن العباس، قال: حدثني أبو ذكوان قال: أدخلت إلى إبراهيم بن العباس وهو بالأهواز لخدمته، فقال: ما تقول في شعر النابغة: «ألم تر أن الله أعطاك سورة» ـ البيتين ـ فقلت: ما عندي فيه إلا الظاهر المشهور، يقول: فضلك على الملوك كفضل الشمس على الكواكب، فقال: نفهم معناه قبل هذا إنما يعتذر إلى النعمان

obeikandi.com

من مدحه آل جفنة الغسَّانيينَ، وتركه له ويريد أن له في مدحه لهم عذرًا، ألا ترى إلى قوله:

ولكنني كنت امرءًا ليَ جانب ... من الأرض فيه مستَرادٌ ومذهَبُ
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكِّم في أموالهم وأقرَّبُ
كحكمك في قوم أراك اصطفيتهم ... فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

يقول: لا تلمني على شكري وقد أحسنوا إليَّ إذ لجأت إليهم، وإن كانوا أعداءك، كما أحسنتَ إلى قوم فشكروك عند أعدائك فقد أحسنوا ولم يذنبوا، ثم قال: اعمل على أني قد أذنبت فمن أين تجد من لا يذنب فقال:

ولست بمستبق أخاً لا تلمُّه ... على شعث أيُّ الرجال المهذَّبُ
فإن أك مظلوماً فعبدٌ ظلمتَه ... وإن يك ذا عتبى فمثلك يَعتِبُ

يقول: مثلك يعفو ويحسن، وإن كان عاتباً وفي كرمك ما يفعل ذلك ولكَ العُتْبى والرجوع إلى ما يجب، ثم فضله عليهم فقال:

«**ألم تر أن الله أعطاك سُورةً** ـ البيتين ـ»[1].

إذن فنحن نتكئ على عمق أدبي وفني في تاريخنا الأدبي العريق، وقد شجع الإسلام هذا العمق الأدبي وزاده عمقاً

(١) أبو هلال العسكري، ديوان المعاني (١/١٥، ١٦)، عالم الكتب.

obeikandl.com

وإشراقاً بما أضفى عليه من معانيه العظيمة، وقيمه الراسخة، وحفظ للأديب حقَّه الشعوري ولم يُصادر قدراته الفنيَّة والإبداعية.

ولذلك فإن كل مقالة تتحدَّث عن سطحية الأدب العربي تحتاج إلى مواجهة موضوعية قائمة على معرفة جوانب العمق في الأدب العربي الذي نضجت أدواته الفنية في الجاهلية،ثم استوت على عودها في الإسلام حين رعى الجانب الفني، وفتح له أبواب المضامين الإسلامية الراقية، وأعطى مشاعر الشاعر، وانفعالات وجدانه قيمة كبيرة.

فها هو عبد الله بن رواحة صاحب عبارة «الاختلاج» يتفاعل مع الإسلام بروح بالغة الرّقَّة وشعور شديد الإرهاف، إنه صاحب تلك النفس التي خاطبها أثناء قعقعة السيوف بقوله:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّهْ
طائعةً أو لَتُكرهنَّهْ
إنْ أجلب الناسُ وشدُّوا الرنَّهْ
مالي أراك تكرهين الجنَّةْ
قد طالما قد كنت مطمئنَّهْ
هل أنت إلا نُطْفةٌ في شنَّهْ
جعفر ما أطيبَ ريح الجنَّهْ

obeikandl.com

قالها بعد أنْ رأى بعينيه استشهاد زيد بن حارثة وجعفر ابن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ في غزوة مؤتة[1].

إذنْ فقد وصف الشعر وصف مجرّب، تختلج في صدره المعاني قبل أن ينطق بها لسانه شعرًا رقيقاً سهل الألفاظ صادق المشاعر.

وهذه التجربة الشعورية تختلف من شاعر إلى آخر، وتبعاً لاختلافها تختلف المستويات الفنية لقصائد الشعراء، بل إن اختلاف قصائد الشاعر الواحد في مستواها الفني راجع إلى هذه التجربة، فمن المؤكد أن النجاح لا يتحقق إلا بعد أن تنضج عناصرها في نفس صاحبها فإذا ما نضجت، وظهرت رائحة حريق المشاعر الداخلي أدَّى ذلك إلى نجاح «العملية الإبداعية» التي تصدر عن تلك التجربة، نثرًا أم شعرًا.

إن التجربة الشعورية تمزج بين باطن النص وظاهره مزجاً قوياً يصعب معه الفصل بينهما، أي أننا لا نستطيع أن نقف أمام لفظةِ «البناء اللغوي الخارجي» دون الوقوف أمام معنى «البناء الداخلي»، وانطلاقاً من هذا التلاحم بين الجانبين

(١) ديوان عبد الله بن رواحة، ص ١٥٣، دراسة وتقديم د/ وليد قصَّاب، دار الضياء، الأردن، ١٤٠٨هـ.

الفني والمضموني في النصوص الأدبية جاء تعريف الأدب واضحاً في الربط بينهما.

فالنص الأدبي عند سيد قطب ـ رحمه الله ـ هو: «تعبيرٌ موح عن قيم حيَّة ينفعل بها ضمير الفنان؛ هذه القيم تنبثق عن تصوُّر معيَّن للحياة، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون وبين بعض الإنسان وبعض»[1].

ثم ينتقل من هذا التعريف العام إلى تعريف أخصّ منه للأدب الإسلامي فيقول: «هو التعبير الناشيء عن امتلاء النفس بالمشاعر الإسلامية[2]»؛ وهذا التعريف المخصَّص هنا، هو ذاته ذلك التعريف الأعمّ الذي أورده سيد قطب نفسه من قبل في كتابه «النقد الأدبي، أصوله ومناهجه» حيث قال عن الأدب: «هو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية»[3].

ولم يكن سيد قطب وحيدًا في وضع هذا الحدّ للأدب، بل إنه واحد من عشرات النقاد المحدثين الذين عرَّفوا الأدب تعريفاً قريباً من هذا التعريف، فها هو د/ عبد العزيز عتيق

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج، ص ٢٨.
(٢) في التاريخ فكرة ومنهاج، ص ٢٨.
(٣) ص ٩، وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٧م.

obeikandl.com

يقول عن الأدب: «إنه ذاتي من حيث إنه تعبير عما يحسُّه الأديب، وعمَّا يجيش في صدره من فكرة أو خاطرة أو عاطفة نابعة من تجربته الشخصية أو تجارب الآخرين»[1].

وهو أمر مضطرد عند النقاد لسنا بحاجة إلى سرد أقوالهم فيه.

ويتضح لنا من ذلك كله أنَّ التجربة الشعورية ذات أهمية كبرى في إبراز المعاني، والصور التي تنقلها الألفاظ والتراكيب حيث يتكوَّن البناء الفني المتكامل للنص الأدبي، وبذلك يؤدي الأدب رسالة لا مناص منها تختلف باختلاف المشاعر التي يحملها الأديب، والتي تصوِّر لنا ما يحمل وجدانه، ويجيش به صدره، وما يؤمن به عقله، وبناءً على ذلك فإنَّ النصَّ الأدبي لا يخلو من التأثر بالمنهج الفكري والعقدي الذي يؤمن به الأديب، وذلك بسبب هذا التلاحم الذي أشرنا إليه بين تلك المشاعر والأفكار، وبين صور النصّ ولغته، وبين التجربة الشعورية التي تنتج هذا النص.

إن هذا يضع أيدينا على الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٨، دار النهضة العربية، ط ٣، ١٣٩٣هـ.

obeikandl.com

بعض المدارس النقدية المعاصرة مثل: البنيوية التي تحكم بموت المؤلف وزحزحته عن نصِّه، وبانقطاع النص عن كاتبه، ثم تحكم بعد ذلك بالحرية المطلقة للناقد في تفجير النص، وتفريغه من كل مضامينه والتعامل مع بنيته الشكلية، فالأدب عندها «نصٌّ فَلُوتٌ لذلك فهي تعلن انفصال الكاتب عن نصِّه بعد أن يتم إنجازه»[1].

وهو خطأ له خطورته في مجال الأدب العربي بالذات؛ لأنه يكسر السياق التاريخي وينقل النص من منظومة فكرية سابقة عليه، إلى منظومة لغوية مستقلة عن قائلها وعن تاريخها[2].

ونحن نعلم أن سياقنا التاريخي أعمق وأعرق من أن نقطع الصلة به أو نتجاهله، بل إنَّ ذلك أمرٌ مستحيل استحالةَ تفريغ النص من مضامينه ومشاعر قائله.

بل إنَّ هذا التخبط الشكلاني جعل ناقدًا شكلانياً يعلن تراجعه عنه، حيث يؤكد الناقد البنيوي الفرنسي «تودروف» في كتابه «نقد النقد» أنه يرفض الشكلانية والبنيوية، ويقرر

(١) (٢) د/ منذر العياشي، جريدة عكاظ، ع ٨٤٣٢، في ١٤١٠/١/١٣هـ. نص محاضرة ألقاها في نادي جدة الأدبي.

obeikandl.com

الاهتمام بأمور أخرى في مجال النقد ذات فائدة أكبر، كما يؤكد أن الناقد ليس تقنياً مختصّاً بلعبة النص والكلمات فقط، وإنما هو مسؤول كذلك عن بحث مشكلة المعنى والقيم[١].

وهو أمر أعلنه أصحاب «البنيوية التكوينية» مثل «غولدمان» الذي يؤكد أن العلائق بين الأدب وبين المذاهب الفلسفية والفكرية وطيدة ومتواترة «لأن الأدب مهما تميَّز فإنه يصدر عن رؤية ما ورائية فنسلك شتات العناصر المكونة له»[٢].

وإذا كان الإنسان «وحدة متماسكة في تاريخه واجتماعه ونفسه وأدبه»[٣]، فإن المشاعر تحتل مكاناً مهماً في إطار هذه الوحدة المتمكاسكة، وذلك ما ترمي إليه عبارة «الاختلاج» التي قالها عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه.

يُروى عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتبة بن مسعود أنه كان فقيهاً شاعراً، وكان أحد السبعة من فقهاء المدينة، وقد لقيه

(١) جريدة الحياة، في ١٢/١٠/١٩٩٠م، مقال عن تودروف كتبه: هشام صالح.
(٢) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي لمجموعة من النقاد في مقدمتهم لوسيان غولدمان، ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية بمراجعة محمد سبيلا، الطبعة الثانية ١٩٨٦، ص ٩.
(٣) د/ سعد أبو الرضا، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياه، ص ٩، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

سعيد بن المسيِّب فقال له: أنت الفقيه الشاعر، فقال: لابد للمصدور أنْ ينفث[1].

ويروي الجاحظ القصة بطريقة أخرى فيقول: قيل لعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: «أتقول الشعر مع النُّسك والفضل والفقه»؟ فقال: لابد للمصدور أن ينفث[2].

والذي يهمنا هنا هو هذه العبارة الدقيقة التي تؤكد علاقة الشعر بالشاعر فالمشاعر مكانها القلب والقلب في الصدر، وإذا نضجت التجربة الشعورية في قلب الشاعر ضاق بها صدره حتى ينفثها؛ إن عبارة النفث التي قالها عبيدالله، تؤدي معنى عبارة الاختلاج التي قالها ابن رواحة وهذا يؤكد عمق العلاقة بين الأدب والتجربة الشعورية، وهو ما يُعنى به الأدب الإسلامي أشدَّ العناية.

*****

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، المجلد الثاني ص : ٢٣٢، الطبعة الثانية، القاهرة، شرح وترتيب أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين جـ: ٢ ص : ٤٨.

obeikandl.com